الاثنين 26/8/2013 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة التفسير

سورة الكهف (19)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك.. وبعد:

فنحن في تفسير آية من سورة الكهف.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: 54].

﴿وَلَقَدْ﴾

اللام: لام واقعة في جواب قسم محذوف؛ أي أقسم لكم أنني صرفت.

حرف (**قد**) إذا تبعه فعل ماض فهو يفيد التحقيق، أما إذا تبعه فعل مضارع فهو يفيد التقليل، فتقول: قد أكلت البارحة مما يعني تأكيدك على الأكل، أما إذا قلت: قد أزورك غداً فهو يعني احتمال زيارتك.

﴿صَرَّفْنَا﴾ أي بينا ونوعنا وكررنا وأوردنا.

فالله تعالى يقسم أنه في هذا القرآن الكريم قد كرر وتوَّع وبَيَّن للناس من كل أسلوب ومن كل مثل؛ لأجل أن يجذبهم من طريق الشر إلى طريق الخير، وأن يأخذهم من أودية الهلاك إلى طريق النور والرشاد والسلامة.

بعض الناس يساقون إلى الله تعالى بالترغيب، وبعضهم بالترهيب، وبعضهم بأسلوب القصة، وبعضهم بالمثل، وبعضهم بالأمر، وبعضهم بالزجر، وبعضهم بالتحبيب، وبعضهم بالتنفير... وكل هذه الأساليب جاءت في القرآن الكريم.

فإذا كان الله عز وجل صرف من كل مثل فلا عذر إذاً لمن لم يفهم على الله بحجة أن الكلام عالي المستوى فالله تعالى خاطبه بخطاب بسيط تفهمه كل الطبقات فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1-4].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

فلا تحتاج هذه المعاني إلى ثقافة عالية وشهادات عالية.

عَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، عَمِّ الْفَرَزْدَقِ، أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 8] قَالَ: حَسْبِي، لَا أُبَالِي أَنْ لَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا [الإمام أحمد].

فالأعرابي البسيط إذا قرأ القرآن فهم مراده وكذلك الجامعي.

من كان يحب التعليم بالمنطق الرياضي فإنه سيجد ذلك في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 78-79].

في هذا الكلام منطق رياضي؛ لأن فيها مقدمة صغرى ومقدمة كبرى ونتيجة.

فالمقدمة الصغرى تقول: كل من أنشأ شيئاً يستطيع إعادته، فبما أن الله هو من أنشأنا فباستطاعته إعادتنا.

من أراد الإعجاز البلاغي أو العلمي فهناك أمثال لكل ذلك ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾.

يطلب من كل أخ أمران اثنان:

1- أن تعود إلى قربك من القرآن الكرم:

منا من لا يفتح القرآن إلا في رمضان، أو عند الوفاة، أو بين الحين والآخر، لكن هناك من له شغف وحب وعشق وصلة بالقرآن الكريم.

كل من ترك القرآن الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فإنه ذاهب نحو خطئ؛ لأن المناهج الوضعية تصيب حيناً وتخطئ حيناً.

كل من لم يتغن بالقرآن فسيتغن بالكلام الجيد أو الماجن.

قال لي أحد الإخوة: أبي له شغف عجيب بالقرآن الكريم حتى أنه إذا أنهى قراءته قبل كل كلمة فيه.

وهذا إن دل على شيء فهو يدل على شغف وغرام وعشق وَوَلَهٍ وحب وصلة.

من بيننا من لا يستطيع أنٍ ينام حتى يُنْهِ ورده من القرآن الكريم، ومنا من هو غافل عن كلام الله تعالى ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: 30].

عن الضحاك بن مزاحم قال: (**يأتي على الناس زمان يُعَلِّقون المصحف حتى يعشش فيه العنكبوت، لا ينتفع بما فيه، وتكون أعمال الناس بالروايات والحديث**) [جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر].

المراد أن لا تنقطع صلتك بالقرآن الكريم.

إذا كنت تشعر بقسوة في قلبك فالقرآن الكريم دواؤك.

إذا كنت تشعر بالإقبال على المعاصي ففي القرآن دواؤك.

إذا كنت تشعر بسوء العلاقة مع أفراد أسرتك ففي القرآن الكريم دواؤك.

إذا كنت تشعر من نفسك بأنك لا تنضبط بالمعاملات المالية ففي القرآن الكريم دواؤك...

فما عليك سوى أن تبحث في القرآن الكريم.

أَلَّف ابن القيم كتاباً مكوناً من أكثر من 200 صحيفة سماه (**الداء والدواء**) أجاب فيه على رسالة جاء فيها:

ما تقول السادة العلماء، أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين في رجل ابتلي ببلية وعلم أنها إن استمرت به أفسدت دنياه وآخرته، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق، فما يزداد إلا توقداً وشدة، فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟ فرحم الله من أعان مبتلى، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، أفتونا مأجورين رحمكم الله تعالى.

فأجاب الشيخ الإمام العالم، شيخ الإسلام مفتي المسلمين، رحمه الله تعالى بدواء جعله في مقدمة وثلاثة أمور:

أما المقدمة، فقد قال فيها:

الحمد لله.. أما بعد: فقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**».

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله: «**لكل داء دواء فإذا أصاب دواء الداء برأ بإذن الله**»...

وأما الدواء: فأوله: الدعاء والالتجاء إلى الله؛ لأن نفسك بيد الله تعالى.

وثانيه: القرآن الكريم، وقد قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82].

وثالثها: الإكثار من الذكر.

2- أن نُبَلِّغَ هذا القرآن لمن حولنا:

لا تدري لعل بتبليغك لهذا القرآن أن يكون هداية إنسان على يديك.

سمع أحد الأعراب رجلاً يقرأ شيئاً من آيات القرآن الكريم فسأله عما يقرأ؟ فقال: هو كلام الله! فقال: وهل للإله كلام على الأرض يقرأ؟! قال: نعم.. وصار يقرأ عليه شيئاً من القرآن فأحبه ثم أسلم.

قال لي أحد الإخوة: كنت في جلسة فيها مجموعة من الرجال من أصدقاء وأرحام وغرباء وكان من بين الجالسين إنسان علماني لا ديني فقال: إنني استطعت أن أُعلِّم أبنائي لأوصلهم إلى أعلى الدرجات العلمية فلم يستطع الدِّين أن يأخذ عقولهم بخرافاته، فإذا بأحد الجالسين من النصرانيين قال: أعتقد لو أنك قرأت في القرآن الكريم وسمعت تسجيلات للدكتور محمد خير الشعال لغيرت شيئاً من رأيك، فلما انتهت الجلسة قال له الأخ: ما أوصلك إلى هذا الكلام؟! فقال: وصلني شيء من التسجيلات فسمعتها.

هذا الأمر ليس شيئاً خاصاً بنا، بل لأنه كتاب الله الذي نزل إلينا.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ .

فالإنسان الذي لم يهذبه الإيمان، ولم يَتَرَبَّ في مدارس القرآن ومدرسة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فلا يزال يجادل.

على كل الأحوال إذا كان الجدال بالحق فهو أمر ممدوح ومحمود، وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

فإذا ما كان الجدال في سبيل الوصول إلى الحق فهو أمر محمود لكن إذا كان الجدال في سبيل التعنت وممانعة الحق فهذا الشيء الممقوت.

اتفق العلماء والعقلاء على قولهم: (إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجَدَل، وإذا أراد الله بعبدٍ شراً فتح له باب الجدل، وأغلق عنه باب العمل).

قال بعض المفسرين: عبر القرآن عن الإنسان هنا أنه شيء كي يتطامن من كبريائه، ويقلل من غروره، فالله خلق أشياء كثيرة ومن جملة هذه الأشياء هو الإنسان.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: **كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»** [مسلم].

يحكى أن رجلين كانا في سافر فشاهدا سواداً فقال أحدهما للآخر: ما هذا السواد؟ فقال له: هم خراف سود، فقال له: بل هم غربان! فلما وصلا إليهم طاروا، فقال لصاحبه: ألم أقل لك بأنهم غربان، فقال له صاحبه: بل هم خراف ولو طاروا.

فليعمل أحدنا إذا رأى الحق أن يعترف بخطئه، فالكبير هو من يرجع عن الخطأ أما الصغير فإنه يخاف على مقامه؛ لأنه صغير وتراجعه يعني أنه سيصغر أكثر وأكثر.

أحياناً يتبين للرجل أنه المخطئ مع زوجته فالواجب عليه أن يتراجع، وكذلك بالنسبة للزوجة أو أب الزوجة إذا رأى أن ابنته هي المخطئة.

أحد الإخوة الخطباء خطب مرة بعنوان ثقافة الاعتذار.

﴿ جَدَلًا ﴾ .

عَنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: **إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلاَمُ -بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ لَهُمْ: «أَلاَ تُصَلُّونَ؟»، فَقَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ لَهُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعَهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ، يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهُوَ يَقُولُ:** ﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [البخاري ومسلم].

فليحرص أحدنا أن يُبَلِّغَ القرآن الكريم لمن حوله، وأن يقلل من الجدال.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

والحمد لله رب العالمين.